شعر المديح والرثاء في العصر العثماني

المحاضرة الرابعة
شعر المديح في العصر العثماني

اتسع أفق الحمد والثناء في العصر العثماني، حتى إنه بُدئ بمديح وخُتم بمديح فالسلطان سليم الأول لم يُعدم من يُشِيْد بمناقبه بعد معركة (مرج دابق) كما أن (نابليون بونابرت) حظي بمِدحةٍ من نقولا الترك قال فيها:

مِقـــــــــدامُها ذو سَـــــــــطوةٍ تُهـــدي الملـــوك لـــه الوقـــارْ

الشّـــــــهم بُونـــــا بَرتـــــةٌ أَســـد الـــوغى ذو الاقتـــدارْ

مـــن فـــاق قَـــدراً وارتقـــى أوجَ العُـــلا وســـما الفخـــار

وفيما بين البدء والختام نثر الشعراء شعرهم على الملوك والسلاطين والعظماء والأشراف والعلماء والقضاة والأصدقاء والأساتذة والأقرباء، على تفاوت في خطوط الممدوحين من هذا الشعر.

وقد يتجاوز المدحُ الناس إلى الأوطان والمدن خاصة، إذ أصبح الشعر – ولا سيما الموشحات – مطية صالحة لذلك، وقد حظيت مدينة دمشق بمدح عدد من الشعراء.

وتقوم قيم المديح وعناصره، لدى الممدوحين من الناس على جملة من النعوت والمزايا المألوفة المكرورة التي تعاورها الشعراء من قبل، وإذا أباحوا لأنفسهم زيادة شيء فإنما هو

الغلو والمبالغة، وإسباغ أسمى الشمائل على الممدوح من ذلك قول شريف مكة أحمد بن مسعود بن أبي نميّ يمدح السلطان مُراداً:

فيـــا ملـــك الملـــوك، ولا أُحـــاشي ولا عُـــذراً أســـوق ولا احتِشـــاما

إلى جَـــدْواك كلَّفنـــا المطايـــا دوامـــاً لا نُفارقهـــا دوامـــا

صَـــلِينا مـــن ســـموم القـــيظ نـــاراً تكـــون بَـــبْرِدِكَ النـــاشي ســـلاما

ومـــن قَصـــدَ الكـــريم غـــدا أميـــراً عـــلى مـــا في يديـــه ولـــن يضـــاما

نجد في هذه الأبيات تضاؤل شخصية الشاعر أمام ممدوحه السلطان وإستغاثته الصارخة به كما نجد احتذاءه المتنبي في معانيه.

واعتاد الشاعر المادح تسليط الأضواء على جوانب الممدوح التي عُرف بها وعُرفت به، فإذا كان سلطاناً ففيه تتمثل الشجاعة والجرأة والإقدام، وإذا كان قاضياً فهناك العدل والبعد عن الهوى في الأحكام، وإذا كان كاتباً فهو الفصيح البليغ، وإذا كان فقيهاً أو متصوفاً فهو سماء العلم النفيس. يقول القاضي ظهير الدين الحلبي في مدح شيخ الإسلام يحيى بن زكريا:

أيـــا عالمـــاً فضـــله كامـــل وإحســـانه للـــورى شـــامل

ومـــن هـــو للعلـــم في ذروةٍ يقصّـــر عـــن نيلهـــا الفاضـــل

أُعيـــذك مـــن أن يُـــرى فاضـــل بـــدولتكم ذِكـــره خامِـــلُ

أمَّا عواطف الشعراء تجاه ممدوحيهم فهي متفاوتة، فقد تجد الصدق والحرارة والإيمان بالقول لدى الشاعر وهو يمدح أستاذه العالم ومربيه الفقيه، وقد تجد الفتور والتكلّف المقيت

إذا دفع الشاعر نفسه إلى ذلك دفعاً كقدوم الشاعر مَنْجَك على السلطان إبراهيم واضطراره إلى مدح السلطان عساه يجد مرتزقاً، ولكن خاب فيما أمّل، ولا شك أننا نحكم على مشاعره بالفتور والضعف، وذلك ما نراه في قوله:

مَلـــكٌ مِـــن الإِيـــمان جَـــرَّد صـــارِماً بِـــالحَق حَتّـــى الكُفـــر أَصـــبَحَ مُسْـــلِما

العَـــدل أَخـــرسَ كـــانَ قَبـــل زَمانِـــهِ أَذِنـــتْ لَـــهُ الأَيـــامُ أَن يَـــتَكَلَّما

عقـــد المُثـــارُ عَـــلى العُـــداةِ سَـــحائِباً لَـــولا الحَيـــا لسـقَى العِـدا مِنهـا دَمـا

فهذه الأبيات – على متانة نسجها – صورة للمديح المتكلّف في ذلك العصر من جهة المبالغة والتقليد، وفقدان الماء والرونق، وفتور العاطفة، وكأن الشاعر قال قصيدته هذه وهو على يقين من أنه لن يخطئ بشيء وهو ما كان.

وكأن قصائد المديح في ذلك العصر كانت امتداحاً للقيم لا للمدوح، ومن هنا تشابهت القصائد؛ لأن الناس قلّما يختلفون على المثل العليا في الحياة.

وإلى جانب ذلك نجد بياناً ساحراً، وجمالاً مصوّراً ومشاعر صافية طاهرة بمديح الأمير مَنْجك أستاذه عبد الرحمن العمادي، يقول:

تَنْـــدَى أنامِلُـــه ويُـــشرِقُ وجُهـــه فيجـــودُ بـــالآلاءِ والَّـــلأْلاءِ

يقِـــظٌ بأعْقـــابِ الأُمُـــورِ كـــأَنَّما جُلِيـــتْ عليـــه حقـــائقُ الأَشْـــياءِ

وشَـــمائِلٌ رقَّـــتْ كـــما خطَـــرتْ عـــلى زَهْـــرِ الرَّبيـــعِ بَـــواكِرُ الأَنْـــداءِ

نلاحظ البساطة والعفوية والسهولة والصدق والإخلاص وكفى ذلك برهاناً على الشاعريّة والفن والجودة، على أنّ نصيب التقليد هو الأوفر دون التجديد وكان الشعراء يتكئون على أسلافهم الماضين من فحول الشعراء.

وهناك لون آخر من المدح في العصر العثماني، هو القول في الفتوح والانتصارات الحربية، على أيدي السلاطين أو الوزراء أو القوّاد، وما يلحق بذلك من تهنئة ونحوها، ويدعى بالمدح البطولي أو النضالي، وقد برز فيه سلاطين بني عثمان ووزراؤهم وقوّادهم، لأنهم أمة حرب ونضال وبطولات، وقد تحقق تحت ألويتهم فتح بلاد كثيرة وتحرير أقاليم عديدة.

وكان للصدر الأعظم أحمد كوبرولي باشا فاتح جزيرة كريت وعاصمتها قُنْدِيَة سهم وافر من أشعار المديح التي خلّدت هذا الفتح.

يقول مصطفى البابي الحلبي:

ليهْنِكَ فتحٌ بشَّرتْه سعوده بإقبال عزم يملأ الأرض والسما

رأيت به الإسلام يلتامُ شعبُه وقد كربتْ أركانُه أن تهدَّما

فعلت بجيش الكفر ما أنت فاعلٌ وجرَّعته كأساً من الذلّ علقما

وهناك أشعار كثيرة قيلت في المعارك والانتصارات الحربية، وقد نتبيّن في هذه الأشعار ملامح شبه ملحميّة، وذلك في مثل قول إبراهيم الحاريصي اللبناني:

ودارُوا بها شرقاً وغرباً وأقبلوا بعسكر بغْيٍ لا يُباريه عسكرُ

فمذ أبصر الأعدا بريقَ صِفاحه وقد كربتْ أركانُه أن تهدَّما

وعافوا هناك الخيل والبِيض والقنا ولم يطلبوا إلا النجاة فقصَّروا

وقد رأينا أن وصفه لا يثقل على النفوس – بالرغم من تقليده – فإن اشتداد الحركة فيه قد أبرأه من وطأة الرتابة ولكن لو صوّر العدو بصورة الشجاع لكان خيراً له وأنفد تأثيراً في نفس القارئ.

فالشاعر العثماني في منهج القصيدة المدحيّة مقلّد يحتذي أسلافه، فهو يبدأ قصيدته عادة ببيت مصرَّع ويمهّد لموضوعه بمقدمة تقليدية في الغزل، سواء أكان هذا الغزل بمذكرٍ أم مؤنث، وربما مزج الشاعر غزله بوصف الطبيعة كقول ابن النحاس في مطلع قصيدة مدح بها السيّد أحمد البكري:

عطَفَ الغصنُ الرطيبُ وتلافا الحبيبُ

أضمر الدهر بنا الصُّلحَ فلم يبق غَضوبُ

وبعض الشعراء يُوطّئون للمدح بوصف الخمر، أو يهجمون على موضوعهم مباشرة ويُعدّ المديح النبوي فناً شعرياً واسعاً، ويعبّر عن عواطف الشعراء النقيّة وأحاسيسهم الوجدانية الصافية، وإن كان بعضهم قد جعلوه غرضاً كباقي الأغراض، يقلّدون ويعارضون، لا تعبيراً عن إيمان مفعم بالحب، أو شعور صادق بالرغبة في مدح الرسول الكريم.

وقد أصبح المديح النبوي غرضاً رئيساً في الشعر، ويعود ازدهاره إلى عدة عوامل أبرزها: شيوع التصوف، وتشجيع السلاطين له، وسيطرة الروح الدينية على المجتمع، والنزاع بين السلاطين والأمراء، وفساد الحياة الاجتماعية في مختلف مظاهرها، وانهيار الأوضاع الاقتصادية في ظل الفقر والظلم والفقر واستفحال خطر الأعداء على البلاد من الشرق والغرب، صليبيّين وتتاراً، واتخاذ الحروب الصليبية والتتارية طابعاً دينياً، فكان من الطبيعي أن يدافع الشعراء المسلمون عن الإسلام ومقدساته، وأن يمدحوا رسوله، ويتوسّلوا إليه حتى تُكشف عنهم الغُمّة والكرب، فأكثر الشعراء من النبويات ممزوجة

بالتوسلات والأدعية في أشعارهم؛ ولا سيما أن عدداً كبيراً منهم كانوا من العلماء والقضاة والمتصوفة، ولبعضهم دواوين كاملة في المديح النبوي.

ونستطيع أن نلخص المحاور التي كانوا يدورون فيها في العناصر الآتية:

١. مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر شمائله ومعجزاته وغزواته، واستمرار الأخذ بفكرة ((الحقيقة المحمدية)) التي تقوم على أن النبي هو أصل كل خير ورحمة ولولاه ما خُلق البشر.

٢. حديث الشاعر عن نفسه الأمّارة بالسوء وكثرة ذنوبه وقلّة زاده، وحاجته إلى شفاعة النبي، والتوسّل به إلى الله، رجاءَ المغفرة.

٣. عجز الشاعر عن توفية الرسول حقّه من المدح والوصف.

٤. الأشواق الصوفية العارمة لدى الشاعر إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وما حولها. من ذلك قول ابن زاكور:

شمسُ العوالم كلّها، ومُمِدها ... في النشأة الأولى وفي عُقباها
قبل الوجود تلألأت أنوارُه ... فالعرشُ والكرسيُّ بعضُ سَناها
أصلُ الأصول، وفرعها، وملاذُها ... وسِراجُ غَيَهبِها وفجر دُجاها
لا يُستطاع مديحُ مَن أوصافُه ... قد طرّز القرآنَ بعضُ حُلاها
قالوا: ألا امْدَحْه، فقلتُ: أَبعدَ ما ... أثنى عليه اللهُ، جلَّ شِفاها

ولابدّ من الوقوف أخيراً عند ظاهرة شعرية تربطها بالمدائح النبوية صلةٌ وشيجة، تلك هي البديعيات، وهي قصائد طويلة في المديح النبوي أيضاً ولكنها منظومة على البحر

البسيط، وعلى رويّ الميم، أودعها أصحابها ما لديهم من ثقافة بديعية، بحيث يُضمّن الشاعر كل بيت من بديعيته لوناً بديعياً أو أكثر.

وكانت هذه البديعات عاملاً جديداً في ازدهار المدائح النبوية، ويعود السبب في نشوئها إلى ثلاثة أمور:

١. شيوع المديح النبوي في الشعر، والرغبة الجامحة لدى الشعراء في خوض هذا الميدان.

٢. افتتان الشعراء ببردة البوصيري خاصة.

٣. اتجاه عناية الأدباء كثيراً إلى البديع وغرامُهم به، وتأليفهم الكتب التي تحصر الفنون البديعية وتشرحها.

وفي العصر العثماني لم يزل الشعراء ينظمون البديعات ويشرحونها وكم تكلّفوا ليزيدوا أو يفرّعوا أنواعاً بديعية جديدة غفل عنها أسلافهم وكأن الأمر خرج من غايته الأصلية، وانقلب إلى حرص على المنافسة والمباراة والتعالم كقول ابن معصوم الحسيني:

حسن ابتدائي بذكرى جِيرة الحرم له براعةُ شوقٍ تستَهِلُّ دمي

وتعود فائدة هذه البديعيات إلى أن شروحها لا تخلو من فوائد نحوية وبلاغية ولغوية وأدبية وتاريخية تجدها مجموعة بين يديك في كتاب واحد بدلاً من التفسير عنها في كتب متفرقة.

المحاضرة الخامسة
شعر الرثاء في العصر العثماني

الرثاء هو المدح إلّا أنّه في ميّت، أو هو الثناء الباكي، وربما ظلّت معانيه واحدة، يردّدها الشعراء على مدار عهود الأدب العربي، وقد وَرِث العصر العثماني تلك المعاني التي أصبحت مألوفة في الرثاء، فلم تتطلع قرائح شعرائه إلى ما هو أبعد منها، وقلّما ابتكروا أو جددوا.

والرثاء واسع الميادين، نبدأ بواحد منها، ونحن نشيع العصر المملوكي ونستقبل عصر بني عثمان بكى ابن إياس دولة المماليك ورثى مصر، قال:

نُوحوا على مصْرٍ لأمرٍ قد جرى من حادثٍ عمَّتْ مصيبتُه الورى

زالت عساكِرُها من الأتراك في غمض العيون، كأنّها سِنَةُ الكَرى

ورثاء الدول والممالك ليس بجديد في شعرنا العربي.

أمّا رثاء الأناسي فهو كثير على اختلاف طبقات المرثيين ومراتبهم، ففيهم الحكّام والأمراء والوزراء، وفيهم الأبطال والقادة، كما أنّ فيهم العلماء والقضاة والأصدقاء، ويشاركهم الأهل والأقارب، وذوو الأرحام، وربّما رثى الشاعر نفسه حين يوقن أنه مغادر هذه الدار التي لا تُبقي على أحد.

وعلى شيوع المعاني العامة المشتركة في أشعار الرثاء، تجد الشاعر يطيل الوقوف عند الجوانب التي التصقت بالمرَثيّ أكثر من غيرها، حتى عُرفت به وعُرف بها، فإن كان حاكماً أو سلطاناً أصابت الأمّة بموته صاعقة عظيمة وانتظر ما شئت من حديث عن الشجاعة والإقدام

والهيبة وما إلى ذلك من نعوت ومبالغات وهو ما تجده في قول أبي السعود المفتي في رثاء السلطان سليمان:

أصـــوتُ صـــاعقةٍ أم نفخـــةُ الصُّـــوْرِ؟ فـالأرضُ قـد قُلِبَـتْ مـن نَقْـرِ نـاقُورِ

أصـــابَ منهـــا الـــورى دَهيـــاءُ داهيـــةٌ وذاق منهـــا البرايـــا صـــعقة الصـــور

فهُـــدّمت بيعـــة الـــدنيا لوقعتهـــا وانهـدّ مـا كـان مـن دور ومـن سُـور

أم ذاك نعـــيُ ســـليمان الزمـــانِ ومَـــن مضـــت أوامُـــره في كـــلّ مـــأمور

وإن كان المَرْثي عالماً أو قاضياً أو مفتياً فيا ضيعة العلم بعده، فقد انطوى بساط الدروس، وفلّ حدّ القلم، ولم يعد للمشكلات المستعصية من يحل عُقدها من أمثلة ذلك قول محمد بن عمر العُرْضي في رثاء مفتي حلب أبي الجود:

بفقـــدك قامـــت نَـــواعي الحِكـــمْ وقـــد فـــلَّ بعـــدك حـــدُّ القلَـــمْ

دفَنـــــت بـــــدفنك في خـــــاطري مباحـــث علـــمٍ غَـــدت كـــالبَّرَم

يعـــــزّ عـــــليّ بـــــأن ينطـــــوي بســـاطُ الـــدروس، ونشْـــرُ الحِكـــم

وإذا كان الفقيد من ذوي القرابة فإن رثاء الشاعر له بحسب درجة تلك القرابة والعمر، والمنزلة العلمية والأدبية، من ذلك رثاء بهاء الدين العاملي لوالده:

يـــا ثاويـــاً بالمصـــلَّى مـــن قُـــرى هَجَـــرٍ كُسيتَ مـن حُلَـلِ الرِضْـوان أرضـاها

أقمـــتُ يـــا بحـــرُ بـــالبحرين فاجتمعـــت ثلاثـــةٌ كـــنَّ أمثـــالاً وأشـــباها

بك انطوى من شـموس الفضـل آخرهـا ومـــن مَعـــالم ديـــن الله أســـناها

نلاحظ في هذه الأبيات قوة الأسلوب وفصاحة الألفاظ، وقد انصرف الشاعر إلى تعداد مناقب والده العالم في معان تقليدية وصور مألوفة، تلفها المبالغة بحيث يمكن أن يَصدُق هذا الرثاء على أي عالم آخر غير والد الشاعر.

- وقد يرتد الشاعر إلى الوراء أحقاباً ويعود إلى الماضي البعيد ليرثي شخصيات لمعت في عصرها وكان لها أخبار ومآثر، فهذا ابن معتوق الموسوي يرثي الحسين بن علي بن أبي طالب يصف مصرعه وصفاً حيّاً، ويصوّر حزنه الدائم عليه ويفدّيه بنفسه، ويندّد بقاتليه ثم يظهر حبه لآل البيت ويشيد بمحامدهم ومناقبهم ومنها قوله:

هَـــلَّ المحـــرَّمُ فاســـتَهِلَّ مكِـــبّرا وانثُـرْ بـه دُررَ الـدموع عـلى الثـرىَ

لله أيُّ مصـــــيبةٍ نزلـــــت بـــــه بكـــتْ الســماءُ لهـا نجيعـاً أحمـرا

- ومن الجدير بالذكر ما نراه أحياناً من رثاء يستعلي به لشاعر من التفجّع على فرد إلى التفجّع على الأمة كلّها من ذلك رثاء إبراهيم بن يحيى العامليّ لناصيف النصّار وهو من أعيان عصره وفضلائه:

وكـــم عـــالمٍ في عامـــلٍ طوَّحـــتْ بـــه طـوائحُ خطـبٍ جرحُهـا لـيس يُـلْأم

وكـم مـن عزيـزٍ نالـه الضّـيمُ فاغتـدى وفي جيـده حبـلٌ مـن الغـلّ مُحْكَـم

- ومما يجدر ذكره أن بعض الشعراء الراثين اتجهوا إلى موضوعات طريفة جعلوا الرثاء مطيّة لها، وهذا الرثاء يتجاوز عالم الأناسي إلى عالم الحيوان، فقد يكون لدى الشاعر هِرّة يأنس بها ويبادلها المودة ويفضّل صحبتها على صحبة النّاس، فإذا بالشاعر يُفجع في هرته وعندئذٍ تجود قريحته بقصيدة رثائية يندب فيها حيوانه الأليف، يقول أحمد الكيواني الدمشقي في رثاء هرة له:

كانـــــت تَـــــروق النـــــاظرين بحُســـــن أخـــــلاق وصُـــــورَهْ
كانـــــت لنفســـــي، إن فقَـــــدْتُ مُســـــامراً، أبـــــداً سَـــــميرهْ
أعـــــزِز عـــــليَّ بـــــأن تُصـــــابَ وأن أضـــــمّنها الحَفِـــــيرهْ

– وكثيراً ما نجد في أشعار الرثاء ألواناً من الحكمة والتأمل والشكوى، تستند إلى فلسفة عفوية آنية تجاه الحياة والموت، والزهد في الدنيا، والنهي عن الانخداع بالزمان، ولابدّ من الرضاء بالقدر، والصبر على كارثة الموت.

هذه الأفكار وأمثالها هي بمنزلة العزاء للشاعر أو المفجوع يجد فيها تصبراً وتسلية يصبه الشاعر في قوالب مختلفة من الحِكم والمواعظ والنصائح التي يتفاوت الناس عامة والشعراء خاصة في صوغها، من أمثلة ذلك قول ابن النقيب الحلبي في قصيدة جمع فيها بين الرثاء والتعزية لأنه قالها في رثاء ابن أخيه من جهة وأرسل بها إلى أبي الوفاء العُرْضي الذي أصيب بولديه من جهة أخرى:

رُزْءٌ ألمَّ، وحســـــــــرةٌ تتـــــــوالى ومصـــــيبةٌ قـــد جـــرَّتْ الأذيـــالا
وفـــــراقُ إلْـــــفٍ إن أردتَ تصـــــبّراً عنـــه أردتَ مـــن الزمـــان محـــالا
بُعـــــداً لـــــدهرٍ شـــــأنه ألّا يُـــــرى إلا خؤونـــــاً غـــــادراً محتـــــالا
نغـــــترُّ فيـــــه بالســـــلامة برهـــــة ونـــــرى المـــــآلَ تمحّقـــــاً وزوالا
مـــولاي يـــا صـــدر الزمـــان، ومَـــن غـــدا لبنِيـــه غوثـــاً يُرتجـــى وثِـــمالا
إنّ المصـــــيبة ناسَـــــبت مـــــا بيننـــــا إذ حوَّلـــــت بحلُولهـــــا الأحـــــوالا

– وقد تتخذ التعزية طابع المداعبة والمفاكهة، كالذي رُوي أنّ صاحباً للخفاجي فَقَدَ نعله فكتب إليه يعزّيه فيها، يقول على لسان الصاحب:

لقد خاننا دهرٌ، وكنّابه نعلُو ... يودُّ هلال الأفق لو أنّه نَعلُ

وقد كان لي نعلٌ فشتت شملَها ... وما الدهر أهلٌ أن يدوم له شمل

وقد كنت ذا بِشْرٍ فأصبحت حافياً ... وكم حزِنتْ من بعدها الكعبُ والرجلُ

يمكن أن نُجمل خصائص الرثاء في العصر العثماني في الأمور التالية:

١. رثاء المدن والدول قليل، ورثاء الأشخاص مستفيض، ولكن المرثيين متعددون ومختلفون، وقد فاز العلماء والأصحاب والأقارب بالنصيب الأوفى.

٢. لم يكن الرثاء على درجة واحدة متساوية من حيث الإجادة والضعف بل كان في الشعراء من أجاد ومنهم من كان مقصراً.

٣. يتكئ الشعراء في هذا الموضوع على الأقدمين دائماً ويقلدونهم في المعاني والأفكار والصور، والأساليب، وقد يقلدونهم ويحتذون حذوهم في قصائدهم، وربما نجد عندهم أحياناً لُمعاً من التجديد ومثال ذلك قول ابن النقيب الحلبي الذي رأى أشجاراً من العُنّاب قد طالت قُرب ضريح والده، وقد زهت أغصانها المخضرّة بثمارها الحُمر، فبكى وتحسّر ولم يملك عَبرته:

وقائلةٍ والدمُع في صحن خدّها ... يفيض كهطَّالٍ من السُّحب قد همَى

أرى شجر العُنّاب في البقعة التي ... بها جدَثٌ ضمّ الشريفَ المعظّما

له خضرةُ المرتاح حتّى كأنّه ... على فقْدِه ما إن أحسَّ تألّما

وأغصـــانُه فيهـــا ثـــمارٌ كأنّهـــا بحُمرتهـــا تُبـــدى الســـرورَ تلوُّمـــا

ومـــا احمـــرّتِ الأثـــمارُ إلّا لأننـــا ســـقيناه دمعـــاً كـــان أكثـــره دمـــا

فالشاعر في هذه الأبيات يعبّر عن ألمه وحزنه بطريقة طريفة وغير مباشرة.

٤. الإلحاح على ردّ الفعل الذي أحدثه موتُ الفقيد والفراغ الذي تركه بعد وفاته في مبالغات تقوم على تضخيم مدى الخسارة فيه، بحسب الميدان الذي كان مبرّزاً فيه من علم أو قضاة أو إفتاء أو أدب أو شعر وهذه المبالغات مما تعارف عليه الناس وإذا كان بعضها مقبولاً فإن بعضها الآخر يصل إلى درجة الغلو.

٥. العناية بالمحسنات البديعية في أشعار الرثاء لهذا العصر قليلة، وقلّما نشعر بتكلّف فيها – إذا وجدت – أو ثقل، لأن النوبة هنا للعاطفة قبل غيرها.

٦. معظم الشعراء كانوا يهجمون على موضوع الرثاء مباشرة من أول القصيدة، وقد يمهّد الشاعر لرثائه، بالحكمة والتأمل في فلسفة الحياة، أو يقف على الأطلال الداثرة كما فعل بهاء الدين العاملي:

قـف بـالطلول وسـلَها: أيـن سَـلْماها؟ وروِّ مـــن جُـــرَعِ الأجفـــان رَيّاهـــا

وربّما مهّد بشيء آخر، غير هذا أو ذاك.

٧. واستمر الشعراء يستخدمون (التاريخ الشعريّ)، وفق حساب الجُمَّلِ، إذ يؤرخون وفاة الفقيد في نهاية المرثية غالباً. مثال ذلك قول أبي بكر العُمريّ مؤرخاً وفاة عالم دمشق في عصره، شهاب الدين أحمدَ العيثاويّ الذي توفي سنة ١٠٢٥هـ.

يـا أخـا العلـم غـاض بحـرُ الفتـاوى وغـدا الـدّينُ دامـيَ الطَّـرْفِ أرمَـدْ

مـات غـوثُ الأنـامِ، مـن كـان يُستسـقى بـــه الغيـــثُ، والخلائـــقُ تَشْـــهَدْ

قـــل: إلهـــي – إذا دعـــوت – وأرِّخ اِرْحَـــم العيثَـــويَّ عبـــدك أحمَـــدْ

٢٤٩ ٦٢٧ ٩٦ ٥٣

وقد يتخذ التاريخ الهجري طابع الهجاء والسخرية والشماتة بسوء العاقبة إذا كان الميت بغيضاً إلى النفوس، لسبب من الأسباب. كقول أحدهم في وفاة القاضي أحمد الجعفري المعروف بالمصُارع، سنة ١٠١٢هـ وكان سيء الأطوار، فيه حماقة:

مـــات المصـــارعُ والأنـــامُ تيقَّنـــوا أنّ الأذى للخَلْـــق منـــه يَضُـــرُّهُ

أُلِهمـــتُ يـــوم وفاتِـــه تاريخَـــه أنّ الـــمُصارِعَ في الجحـــيم مقـــرُّه